الافتتاحيّة

التديّن حياة الدين

حسن أحمد الهادي[1]

الدين حاجة طبيعية للإنسان، ويميل الإنسان فطريًّا إلى الدين، غير أنّه لأجل الوصول إلى الدين الحقّ في بعده النّظريّ والعمليّ، لا بدّ وأن يقوم بالبحث عن الغاية التي خُلق لأجلها، نظراً لما لهذا البحث من أهمية وتأثير في إيمان الإنسان وسلوكه ونظرته للعالم. ولأنّ من آمن بحكمة الله وقدرته اللامتناهية يعلم يقيناً أنّ الباري الحكيم إذا خلق شيئاً يجعل له هدفاً، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2]. و﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3]. فالحكمة العظيمة في أفعال الربّ تعني ضرورة وجود هدف وغاية لوجود الإنسان في هذه الحياة. والطريق لمعرفة الغاية التي نتحدّث عنها هي غاية الإنسان التي خُلق من أجل الوصول إليها، بمعنى آخر هي غاية النفس الإنسانيّة، ولهذا إذا أردنا أن نتعرّف إلى هذه الغاية علينا أن ننطلق من معرفة هذه النفس الإنسانية، عن رسول الله ﷺ: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»[4]. فالسير والتأمل العقليّ في حقيقة النفس الإنسانيّة وتركيبتها

(1) رئيس التحرير.
(2) سورة آل عمران، الآية 191.
(3) سورة طه، الآية 50.
(4) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج2، ص32، الناشر مؤسسة الوفاء - بيروت لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1983م، الطبعة 2، باب استعمال العلم والإخلاص في طلبه، ح 22.

يهدينا إلى معرفة الغاية التي خلقنا الله لأجلها. فالله سبحانه قد كتب في أعماق كلّ مخلوقٍ كلمات الحقيقة، وليس على الإنسان إلَّا أن يفتح كتاب خلقته ويطالع صفحاته لكي يصل إلى مطلوبه. وكتاب الخلقة هذا ليس سوى الفطرة الإلهية، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [1]. فالفطرة هي أصل الخلقة والهيئة التي خُلق عليها الإنسان، والصبغة التي صبغه الله بها منذ أوجده في هذا العالم ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾[2]. وللفطرة الإنسانية ميزاتٌ عديدةٌ ومتنوّعة من أهمها أنها مشتركة بين جميع الناس على مرّ العصور واختلاف الأمكنة، وهي لا تتأثّر ولا تتبدّل رغم كل الاختلافات والتناقضات في العادات والتقاليد والمناخات والجغرافيا، والأنظمة السياسية والفكرية، والتيارات الثقافية، والمذاهب الدينية. وأنّها لا تعرف حدّاً أبداً، فرغبات الفطرة الإنسانية لا تقف عند حدّ بل تطلب دائماً ما هو أفضل وأكمل، وهي في حالة طلبٍ دائم، وميولها لا تعرف الشبع أبداً. وهو ما ينبغي أن يقودنا إلى الغاية الحقيقية، روي عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «**يا هشام: إنّ لله على الناس حجّتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأمَّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمَة عليهم السلام، وأما البَّاطنة فالعقول**»[3]. ولهذا عندما نتبع وجهة هذه الميول بواسطة العقل سننتهي إلى الغاية؛ لأنّ الله تعالى لا يعقل أن يجعل فينا ميولاً وتوجهات نحو أشياء لا ينبغي أن نسعى نحوها، إنّ مثل هذا الظن تَوَهُّم فاسد، واتّهامٌ للخالق سبحانه، لأنّ الحكيم المتعال لا يترك أيّ عمل فيه حكمة ومن ورائه حكمة، وحكمته المطلقة تعني لزوم صدور جميع الأفعال الحكيمة عنه، والحكمة تعني أن فعل الحكيم ينبغي أن يتَّصف بالغائيّة والهدفيّة، وأن يكون الهدف من فعله جليلاً وسامياً. إذن

(1) سورة الروم، الآية 30.

(2) سورة البقرة، الآية 138.

(3) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج 1، ص 16، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، الناشر دار الكتب الإسلامية – طهران، مطبعة الحيدري، 1363ش، الطبعة 5، كتاب العقل والجهل، ح 12.

وجود الميول الفطرية فينا دليلٌ قويّ على وجوب تلبيتها، فإذا لحقنا هذه الميول في توجّهاتها ورغباتها سننتهي إلى الغاية التي خلقنا الله من أجلها، ولا سيما «**أنّ في الإنسان حباً فطرياً للكمال المطلق وللوصول إلى الكمال المطلق الذي يستحيل أن يتكرّر أو يتثنّى. فالكمال المطلق هو الحق جلّ وعلا والجميع يبحثون عنه، وإليه تهفو قلوبهم ولا يعلمون، فهم محجوبون بحجب الظلام والنور. لهذا فهم يتوهمون أنّهم يطلبون شيئاً آخر غيره، ولذا تراهم لا يقنعون بتحقيق أيّة مرتبة من الكمال، ولا بالحصول على أي جمال أو قدرة أو مكانة. فهم يشعرون أنّهم لا يجدون في كل ذلك ضالّتهم المنشودة... ولو أعطي الساعون إلى القدرة والسلطة التصرّف في كل العالم المادي من الأرضين والمنظومات الشمسية والمجرّات، بل وكل ما فوقها، ثّم قيل لهم: إنّ هناك قدرة فوق القدرة التي تملكونها أو أن هناك عالماً أو عوالم أخرى فوق هذا العالم، فهل تريدون الوصول إليها؟ فإنّهم من المستحيل أن لا يتمنّوا ذلك، بل إنّه من المحتم أن يقولوا بلسان الفطرة: ليتنا بلغنا ذلك أيضاً**»[1].

وعليه، فإنّ وجود هذه الرغبات والميول نحو الكمال الذي لا حدّ له، لهو دليلٌ واضح على أن الكمال اللامتناهي هو الغاية التي ينبغي أن نسعى إليها، وقد خلقنا الله تعالى لذلك. وبهذا يتجلّى حضور الله في حياتنا، ونسلك طريق لقاء الله تعالى. وكلامنا الآن يتمحور حول لقاء الله في الدنيا قبل الآخرة. وليس المقصود بلقاء الحق تعالى اللقاء الحسّي ورؤيته تعالى بالبصر المادي، لأنّ الله تعالى ليس بجسم، ولا يحدّه مكان، ولا يُرى بالعين، فإنه ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[2]. بل المراد به اللقاء المعنوي، بمعنى حضوره تعالى الدائم في حياتنا، وعدم الغفلة عنه أبداً، والتوجّه إليه باستمرار، ومشاهدة آياته وآثار قدرته تعالى في كلّ شيءٍ. فلا نعبد غيره، ولا ندعو سواه، ولا نطلب حوائجنا إلّا منه.

(1) الإمام الخميني، وصايا عرفانية، ص20 - 21.
(2) سورة الأنعام، الآية 103.

فالإنسان عندما يدرك أنّ الله تعالى خالقه، ومالك كل شيء، وبيده الأمر كله، وهو في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، وهو ربّ العالمين، فمن الطبيعي أن يتوجّه إليه بالعبوديّة له والتسليم. والوصول إلى هذه المنزلة الإنسانية الرّفيعة، من لقاء الحق والحضور في محضره عندما يصبح الله تعالى حاضراً دائماً في حياة الإنسان، فيرى الإنسان خالقه حاضراً وموجوداً في جميع شؤون حياته، ويشاهد نفسه دائماً في مشهد الله العظيم وفي ساحة حسابه يوم القيامة، وكيف لا يكون ذلك وهو تعالى معه أينما ولّى وجهه ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]. وبناءً على هذا الفهم لحضور الله ولقائه تتبلور نظرة الانسان إلى الحياة والكون ومفاهيمه في شتى المجالات، والتي تسهم في بنائه الفكري والأخلاقي والاجتماعي والتربوي...، وتكون التربية العقائدية المستمدة من الوحي هي التي تبني الإنسان الصالح وتحصّنه، وهي التي توازن بين طاقة الروح وطاقة العقل وحاجات الجسد، وتوازن بين معنويات الإنسان وماديّاته، وبين ضروريات الإنسان وكمالياته، وبين واقعه وما ينشده من كمال، وبين نزعاته الفردية ونزعاته الجماعية، وبين إيمانه بعالم الغيب وعالم الشهادة...، وما يعزّز هذه المسألة هو الإقتران بل التلازم الدائم والضروري والشامل بين الإيمان والعمل الصالح بحسب ما كما ورد في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ...﴾[2]. ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ...﴾[3]، ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ...﴾[4]. ﴿... إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ...﴾[5]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) سورة الحديد، الآية 4.
(2) سورة مريم، الآية 60.
(3) سورة الفرقان، الآية 70.
(4) سورة الكهف، الآية 88.
(5) سورة سبأ، الآية 37.

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[1]. فالقاعدة المستفادة من هذه الآيات وغيرها هي: عدم وجود إيمان بلا عمل والعمل يجب أن يكون صالحاً، منسجماً مع الشريعة المقدّسة. وكل عمل من شأنه أن يهدي الناس أو يرفع من مستواهم العلمي أو العملي أو الثقافي أو... هو عمل صالح، والعمل الصالح هو الجانب العملي للإيمان «**الإيمان عمل كله**». وإنّ هذا الاقتران ليس من قبيل الإثنينية المميّزة لأحدهما عن الآخر، بل من قبيل التكامل الماهوي والتلازم السببي، بحيث لا يكتمل أحدهما من دون الثاني، فهما، أي الدين والتدين يشكلان الإطار الخلاصي للإنسان. وهو ما تؤكّده الروايات، فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام »ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي، ولكن الإيمان ما خلص في القلوب وصدّقته الأعمال .[2] وعن سلام الجعفي قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الإيمان فقال: «**الإيمان أن يطاع الله فلا يعصى**»[3]. وخلاصة القول: إنّ الإيمان كل لا يتجزّأ، ويرتكز على ثلاثة مقومات: الاعتقاد والإقرار والعمل، عن أبي الصلت الهروي، قال: سألت الرضا عليه السلام عن الإيمان، فقال عليه السلام: «**الإيمان عقد بالقلب ولفظ باللسان، وعمل بالجوارح، ولا يكون الإيمان إلاّ هكذا**»[4]. وبهذا يدرك الإنسان أنّه في محضر الله تقدّست ذاته، وأنه مطّلعٌ على جميع حركاته وسكناته، فلن يقوم بالأعمال التي لا ترضي الله، ولن يعصيه أبداً، بل سوف يسعى دائماً لأن يجعل كلّ أعماله موافقةً لإرادته تعالى وخالصةً لوجهه سبحانه. فالله تعالى يرى ويشاهد أعمال الإنسان، وليس هو وحده وإنما رسوله صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومون عليهم السلام شاهدون على أفعالنا أيضاً ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[5]. وعن الإمام الصادق

(1) سورة مريم، الآية 96.
(2) تحف العقول: 370 .
(3) أصول الكافي 2: 33، 3 كتاب الإيمان والكفر
(4) معاني الأخبار: 186 باب الإيمان والإسلام
(5) سورة التوبة، الآية 105.

عليه السلام قال: «**تُعرَض الأعمال على رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم أعمالُ العبادِ كلّ صباح أبرارها وفجّارها فاحذروها، وهو قول الله تعالى** ﴿ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾، **وسكت**»[1]. فإذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة وهي أن كل أعماله مشهودةٌ عند الله وملائكته الذين يكتبون كل شيء، وكذلك الأئمة المعصومين عليهم السلام، عندها سوف يسعى لاجتناب المعاصي وفعل الصّالحات. أما إذا لم يطّلع الإنسان على أصل أن «الله معه» دائماً، وظنّ أنه غائبٌ عنه، فإنه سوف يغرق بالغفلة، وسوف يتهاون في أداء الأعمال الواجبة عليه، ولن يهتمّ باجتناب المحرّمات. بخلاف ما إذا أدرك أنّ الله تعالى محيطٌ به ووجد نفسه دائماً في مشهده ومحضره، فإنه يسعى لأداء كل الأعمال طبق الإرادة الإلهية. وهذه الأعمال التي تؤدّى وفق إرادة الله هي أعمالٌ مقرّبةٌ إلى الله، كالصلاة مثلاً التي هي «قربان كل تقي»[2] كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام. وإذا وصل الإنسان إلى هذا الحدّ فاعتقد أن الله ناظرٌ إلى أعماله، راعى الخلوص أيضاً في كل أعماله. فهو من جهةٍ يؤدّي الأعمال بحسب أوامر الله، ومن ناحيةٍ ثانية يكون مخلصاً في القيام بأعمال البرّ والخير. وهذه منزلةٌ رفيعةٌ يصل إليها الإنسان وهي متيسّرة للجميع، فما أخسر الذين يبيعون أنفسهم للدنيا وهم مدعوّون للوصول إلى هذا المقام الرفيع.

بناءً على ما تقدّم لا بد من تجنّب الخلط بين الدين والتّديّن، والدين والإيمان، والحال أنّ الإيمان والتديّن يختلفان عن الدين؛ لأنّ الإيمان والتّديّن وصفٌ للإنسان، أمّا الدين فهو حقيقةٌ رساليّةٌ أتاحها الله تعالى للإنسان. فالدين «**مجموعة عقائد وقوانين ومقرّرات ناظرة إلى الأصول النظريّة والعملية للبشر، كما أنّها تشتمل على الأخلاق وتغطّي جميع شؤون حياة البشر. وبعبارةٍ أخرى، الدين مجموعة عقائد وأخلاق وقوانين ومقرّرات**

(1) الكليني، الكافي، ج 1، ص 219.
(2) م.ن: ج 3، ص 265.

أنزلت لإدارة الفرد والمجتمع وتربية الإنسان عن طريق الوحي والعقل»[1].

علماً بأن الكثيرين يخلطون بين الدين والتديّن، ولذا حمّلوا الدين الكثير من المغالطات والأخطاء الناشئة من التديُّن بما هو عمليّة ينتهجها الفرد المنتمي شكلاً إلى الدين، ويصنّف كل ما يصدر من هؤلاء يسيء إلى الدين، بل لا شيء من الممكن أن يلحق ضررًا بالدين كالتديُّن السيّء والمشوَّه، كما هو الحال مع الحركات التكفيرية في عصرنا الراهن...، وهذا التديُّن المشوّه لا يمكن مواجهته إلّا بتديّنٍ سليم، وإذا استطاع هؤلاء أن يقدّموا تجربةً عمليّةً مشوّهة عن الإسلام، فإنَّ من الأولى أن يقدّم المسلمون بالمقابل تجربةً عملية حضاريّةً متكاملةً وشاملة عن الإسلام، ذلك أنّ الإدانات الكلاميّة والخطابيّة، والإحالة على النصوص الدينيّة، لا يكفي لمواجهة الفكر التكفيري ودحضه.

وهذا ما يتطلّب جهداً علمياً تحقيقياً واسعاً على مستوى تحقيق التراث وتنقيته من الأفكار والمناهج التي تقدّم الدين بلباس الباطل؛ لأنّ مجموعة العقائد والأوصاف الأخلاقيّة والأحكام الفقهيّة والحقوقيّة؛ إمّا أن تكون حقًّا، أو باطلًا، أو مزيجًا من الحقّ والباطل. فالدين الحقّ، هومجموعة العقائد والأخلاق والمقرّرات الحقّة، وعلى العكس يكون باطلًا، سواء أكان باطلًا محضًا أم ممزوجًا بالحقّ؛ إذ إنّ الجامع بين الحق والباطل يلحق بالباطل دون الحقّ. ويصف القرآن الكريم تعاليم الأنبياء عليهم السلام بالحق؛ لأنّ العقائد والمقرّرات والأخلاق منزّلة من الله سبحانه فهو حقّ. وإنّ الله تعالى يقول لنبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[2]، وفي آية أخرى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾[3]. والإسلام هو الدين الحقّ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[4]، والذي لا يقبل الله من أحد إلا انتخابه والاعتقاد به، قال

(1) جوادي آملي، الدين، ترجمة هاشم الميلاني، ص9، (غير مطبوع).
(2) سورة آل عمران، الآية 60.
(3) سورة التوبة، الآية 29.
(4) سورة آل عمران، الآية 19.

تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1]. وأما الدين الباطل فهو ما جاء به الطواغيت بلا فرق بين استنادهم إلى فكر فلسفي معين أو الاستناد إلى أفكار ومعتقدات خاصة أخرى.

والحمد لله رب العالمين

(1) سورة آل عمران، الآية 85.